فوائد من كتاب

"رسالة في الحيلة لدفع الأحزان"

تأليف: يعقوب بن إسحاق الكندي

مقدمة

"إنّ كلَ ألمٍ غيرِ معروفِ الأسباب؛ غيرُ موجودِ الشفاء" ص٦

"إن الحزنَ ألمٌ نفسانيّ، يَعرضُ لفقد المحبوبات وفوت المطلوبات" ص٦

قواعد عامة

"إنه ليس بممكنٍ أن ينالَ أحدٌ جميعَ مطلوباته، ولا يَسلم من فقد جميع محبوباته؛ لأن الثبات والدوام معدومٌ في عالم الكَوْنِ والفساد الذي نحن فيه" ص٧

"أمّا القُنيةُ الحسّيّة والطلبات الحسية فإنها موقوتاتٌ لكل أحد، ومُبتذلٌ لكل يد؛ لا يمكن تحصينها، ولا يُؤمَنُ فسادها وزوالها وتبدلُّها؛ فيصيرُ الشيءُ بعدما كان يؤنس بقربه مُوحشاً، وبعد الثقة بطاعته عاصياً، وبعد إقباله مُدبراً؛ إذ ليس في الطبع أن يكونَ ما ليس في الطبع ... ومن أرادَ ما ليس في الطبع؛ أرادَ ما ليس موجوداً، ومن أرادَ ما ليس موجوداً عدمَ طِلبتَه، والعادمُ طِلبته شقيّ، فمن أرادَ الموقوتات، وأراد أن تكون قُنيتُه ومَحابُّه منها؛ شقيّ، ومن تمّت له إرادته؛ فسعيد" ص٧-٨

"إصلاحُ النفس وإشفاؤها من أسقامها، أوجبُ شديداً علينا من إصلاح أجسامنا؛ فإنا بأنفسنا نحنُ ما نحنُ، لا بأجسامنا؛ لأن الجسمَ مشتركٌ لكل ذي جسم، فأما حيوانية كل واحدٍ من الحيّة فبنفسه، وأنفسنا ذاتية لنا، ومصلحة ذاتنا أوجب علينا من مصلحة الأشياء الغريبة منا، وأجسامنا آلاتٌ لأنفسنا تظهرُ بها أفعالها؛ فإصلاح ذواتنا أولى بنا شديداً من إصلاح آلاتنا" ص١١

" إصلاح أنفسنا أقل بشاعة وأخف مؤونة كثيراً مما يلحق في ذلك من إصلاح الأجسام؛ لأن إصلاح أنفسنا إنما هو بقوة العزم على المصلح لنا، لا بدواءٍ مشروب، ولا بألم حديدٍ ولا نار، ولا بإنفاق مال؛ بل بالتزام النفس العادةَ المحمودة في الأمر الأصغر - الذي لزومه سهلٌ علينا - ثم نرتفع من ذلك إلى لزوم ما هو أكبر منه، فإذا اعتادت ذلك؛ يُرقى بها إلى ما هو أكبر

من ذلك في دَرَجٍ متصلة؛ حتى تلزمها العادة في لزوم الأمر الأعظم، كلزوم العادة لها في لزوم الأمر الأصغر؛ فإن العادة تَسهُل بما وصفنا، ويسهل بذلك الصبرُ على الفائتات والسلوةُ عن المفقودات" ص١٢

أدوية الأحزان

(١) ينبغي إذا لم يكن ما نريدُ؛ أن نريدَ ما يكونُ

"فينبغي إذن أن نحرص على أن نكون سعداء، وأن نحترس من أن نكون أشقياء:

بأن تكون إرادتنا ومحبوباتنا ما تهيّأ لنا،

ولا نأسى على فائتة،

ولا نتطلّب غير المتهيّء من المحسوسة،

بل نكونُ إذا شاهدنا الأشياءَ التي يتمتعُ بها الناسُ من المحبوباتِ في العقل – أعني قدرَ ما بالنفسِ إليه الحاجة، في تثبيت صورتها أيامَ مُدتها المقسومة لها وإثمار فعلها، وما دفعَ عنها الألمَ وأفادها الراحة – تناولناهُ بالأمر الأجمل بقدر الحاجة، ولم نتلقّها - قبل مماسّتنا إياها ومشاهدتها – بتمنٍّ ، ولم نُتبع أنفسنا، بعد انصرافها عنّا، تأسُّفاً ولا إشغالَ فكر" ص٨-٩

"ينبغي إذا لم يكن ما نريدُ؛ أن نريدَ ما يكونُ، وأن لا نختارَ دوامَ الحُزنِ على دوام السرور، وإنّ مَنْ أحزنَه فوتُ الفائتات وعدمُ المعدومات؛ لم يَتصرّم حزنُه أبداً؛ لأنه في كل حالٍ من مُدّته يفقدُ محبوباً ويفوته مطلوبٌ. والحزنُ والسرورُ ضدان لا يثبتان في النفس معاً؛ فإذا كان محزوناً لم يكن مسروراً، وإذا كان مسروراً لم يكن محزوناً؛ فينبغي إذن أن لا نحزنَ على الفائتات ولا فقد المحبوبات، وأن نجعل أنفسنا – بالعادة الجميلة – راضيةً بكل حال؛ لنكونَ مسرورين أبداً" ص٩

(٢) احمل نفسك على عدم الحزن على فقد المحبوبات وفوت المطلوبات وعوّدها ذلك

"نرى الكَلِفَ بالقِمار – مع استلاب ماله، وضياع أيامه باطلاً، وتتالي أحزانه بمقموراته – بأمره بَهِجاً مسروراً، وكلُ ما خالف ذلك عنده وحجبه عنه، مصائبُ ونقصٌ به.

ونرى الشاطرَ بشرارة سنّته وخشونة استعماله، وما فيها من المعاطب الفاحشة الموحشة - مِن ضرب السياط، وقطع الأعضاء، وكثرة الجراحات المؤلمة، ودوام الحرب المتصلة، متى تتناهى به مطالبه إلى الصَّلب – يعتد هذه المعاطب فخراً وشرفاً، ونراه بذلك كله بَهِجاً، ويرى ما خالف ذلك من العافية نقصاً ومصائب ...

فيتبيّن إذن أن المكروه والمحبوب الحِسّي ليس شيئاً في الطبع لازماً، بل بالعادات وكثرة الاستعمال؛ فينبغي إذن – إذا كان الطريقُ إلى استعمال السرور بما شاهدنا، والسلوة عن فائتنا، سهلةً واضحةً بالعادة – أن نستعملَ حملَ أنفسنا على ذلك، وتربيةً لها؛ حتى يصيرَ ذلك لنا عادةً لازمةً وخُلُقاً مُستفاداً، أعني نتخلّق خلقاً – إذا لم يكن ذلك لنا بالطبع – بالفعل، أعني من بدء عادتنا؛ ليطيبَ لنا العيشُ أيامَ مُدّتنا" ص٩-١٠

(٣) إذا كان الحزن هو فعلك؛ فلا تحزن، وإذا كان هو فعل غيرك: فإن كان بيدك دفعه؛ فادفعه ولا تحزن، وإن لم يكن بيدك دفعه؛ فلا تحزن قبل أن يقع؛ فربما لا يقع أبداً

" ومن أدوية ذلك السهلة: أن نفكّر في الحزن ونقسّمه إلى أقسامه فنقول: إن الحزن لا يخلو أن يكونَ ما عَرَضَ منه: أمرٌ هو فعلُنا، أو فعلُ غيرنا.

فإن كان فِعلَنا؛ فينبغي أن لا نفعل ما يحزننا؛ فإنّا إن فعلنا ما يحزننا، فالإمساكُ عن فعله إلينا – إذ فَعَلْنا – والإمساكُ عنه إلينا، فنحن إذا كنا نفعل: إما أن نكون نفعل ما نريد، أو ما لا نريد، فإن كنا نفعل ما نريد – ولسنا نريد أن نحزن – فنحن نريد ما لا نريد؛ وهذه من خاصّة العادم عقله؛ فنحن إذن عُدماء لعقولنا.

وإن كان المُحزنُ لنا فِعلَ غيرنا: فلا يخلو من أن يكونَ دَفعُه إلينا، أو لا يكون ذلك إلينا، فإن كان دفعُه إلينا؛ فينبغي أن ندفعه ولا نحزن، وإن كان دفعه ليس إلينا؛ فلا ينبغي أن نحزن قبل وقوع المُحزِن؛ فلعل الذي إليه دفعه، أن يدفعَه قبل وقوعه بنا، ولعل الذي إليه الأحزان، ألا يُحزِنَ ولا يفعلَ الذي خِفنا، فإن حَزِنّا قبل وقوع المُحزِن ... كنا قد أكسبنا أنفسنا حزناً لم يُكسبناه غيرُنا، ومن أحزن نفسه فقد أضرّ بها؛ ومن أضر بنفسه فجاهلٌ فظ، جائرٌ في غاية الجور" ص١٢-١٣

(٤) تذكر أحزانك السابقة وأحزان غيرك، التي شُفيتم منها فكأن لم تكن

"ومن لطيف الحيلة في ذلك: تذكُّر مُحزناتنا التي سَلَوْنا عنها قديماً، ومحزنات غيرنا التي شاهدنا حزنَهم بها، وسلوتَهم عنها... فإن لنا بذلك قوةً عظيمةً على السلوّ" ص١٤

"وأن نتذكر أيضاً أنّ كلَ شيءٍ فاتنا أو فقدناه؛ فقد فات خَلقاً كثيراً وفقده خلقٌ كثير، كلهم قنعَ بفوته وفقدانِهِ، وهو ظاهرُ البهج بعيدٌ من الحزن. فإن مَنْ ماتَ ولدُه أو عَدِمَ الولد، فإنه موجودٌ كثيرٌ من الخلق مشابهٌ له في ذلك: منهم من عدمَ الولدَ وهو فَرِحٌ، ومنهم من مات ولده – وقد سلا – وهو فَرِحٌ. وكذلك يَعرض في المال، وفي جميع قُنية العالم الحسيّة، وجميع مرادات أنفس البشر؛ وإذن إنما الحزن وضعٌ لا طبع... فينبغي أن لا نضعَ لأنفسنا شيئاً رديئاً؛ إذ الحزن من الرداءة على ما قدّمنا؛ فإن من وضعَ لنفسه شيئاً رديئاً؛ هو عديمُ عقلٍ" ص١٥-١٦

(٥) المصائب محتومة

" وينبغي لنا أيضاً أن نتذكر: أنّا إن أردنا أن لا نصابَ بمصيبةٍ؛ فإنما أردنا أن لا نكونَ البتة؛ لأن المصائبَ إنما تكونُ بفساد الفاسدات؛ فإذا لم يكن فسادٌ؛ لم يكن كائن ... وأيضاً فإن أردنا أن لا يكون ما في الطبع؛ فقد أردنا الممتنع، ومن أرادَ الممتنع حُرمَ مراده؛ ومن حُرمَ مراده فشقيّ" ص١٦

(٦) لا تكن حسوداً

"وينبغي لنا أن يكون منا على بال: أن جميعَ الأشياء التي تصلُ إليها الأيدي، مشتركةٌ لجميع الناس، وإنما هي مجاورةٌ لنا، لسنا أحقَّ بها من غيرنا، وأنّ الغالبَ عليها؛ هي له، ما غلبَ عليها، وأما الأشياء التي هي لنا، وغيرُ مشاركةٍ لغيرنا، فهي التي لا تصلُ إليها الأيدي، ولا يملكها علينا غيرنا، والتي هي قُنية أنفسنا من الخيرات النفسانية؛ فهذه هي التي لنا العُذر في الحزن عليها إن فقدناها من أنفسنا، فأما ما ليس لنا إلا بالتغلُّب؛ فليس يحسن بنا الحزنُ عليه، لأنه من حزن على أن لا يملك الناسُ ما لهم أن يملكوه بالطبع؛ حسودٌ؛ فينبغي لنا أن لا نقرف أنفسنا بالحسد؛ إذ هو أكمل الشرارات" ص١٧

(٧) كل ما لديك هو ليس ملكك، وهو مردود إلى مالكه

"وينبغي أيضاً أن يكون منا على بال: أن كلَّ ما لنا من القُنية المشتركة، فهي معنا عاريةٌ لمُعير – هو مُبدع القنية جلّ ثناؤه – يمكنُ أن يتناولَ عاريتَه متى شاء، ويدفعها إلى من شاء؛ فإنه لو لم يدفعها إلى من شاءَ لم تكن وصلت إلينا البتة.

وقد نظن أنه إذا تناولها منّا بأيدي الأعداء، أنه يسيءُ إلينا؛ فينبغي أن يكون منّا على بال: أنّ المُعيرَ - له أن يتناولَ ما أعارَ ويرتجعَه على يد من أحب؛ فإنه ليس علينا في ذلك عارٌ ولا سُبّة، بل العار والسبة علينا أن نحزن إذا ارتُجعت منّا العواري؛ فإنها من أخلاق ذوي الشِّرة والضنّ وسوء التمييز، ومن إذا أُعيرَ شيئاً ظنّ أنه ملكه؛ فهذا خارجٌ من باب الشكر؛ لأن أقل ما

يجب من الشكر على المُعار: ردُ العاريةَ إذا أرادَ ارتجاعَها المُعيرُ، مع طيبة نفسٍ وبَهَجٍ بالإسراع إلى تلبية المعير في ردها؛ فإذن من حَزن على ردّ ما أعُيرَ؛ فقليل الشكر ...

وينبغي أن يكون منا على بال: أنه إذ لم يرتجع المُعيرُ منّا أنفسَ ما أعارنا، بل خسائسَ ما أعارنا؛ فقد أحسنَ إلينا كلَّ الإحسان، ونبتهج أشدّ بَهجٍ، ببقاء زينةِ عواريه الشريفة علينا، ولا نأسى على فقد ما ارتجع منّا.

إذ كان واجباً أنْ لو ارتجعَ كلَّ ما أعارَ؛ أن لا نحزن بل نبتهج؛ إذ كان بَهجُنا – مِن ذلك – مِن شكره، وفي موافقته على محبته، وأنه قد ترك الأفضل الأكثر" ص١٨-١٩

(٨) كلما زادت مقتنياتك؛ زادت أحزانك؛ فاحرص على الأقل اللازم

"يجب أن نقللَ القُنية؛ إذ كان عَدمُها وفَوْتُها – إذ كانت من الخارجةِ عنّا – سبباً للأحزان؛ فإن من ذلك وحده يكونُ الحُزن. فإنه حُكي عن "سقراط الأثيني" أنه قيل له: ما بالك لا تحزن؟ فقال: [لأني لا أقتني ما إذا فقدتُه حزنتُ عليه]...

فلذلك ما نقولُ: من أحبَّ أن تقلّ مصائبه؛ فليُقلَّ قنيته من الخارجات عنه" ص٢٠-٢١

"إن خالق الكل – جل ثناؤه – لم يخلق شيئاً مصرومَ الطبع، بل مكفياً؛ فإنا نرى الحوتَ العظيم، والفيل العجيب الخَلق، المحتاج كل واحدٍ منها من الغذاء المقيم والمأوى والمكنّ وجميع الحاجات اللوازم لهما، وما دونهما من الخلق، مكفي، مهيأ له قدر الحاجة في قوامه وطيب عيشه، لم ينتقص شيئاً منه مُتأمِّلٌ نقصه في ذلك، وكلها طيبَ العيش رخيَّ البال، ما لم يمسّه محسوسٌ مؤلم، غير الإنسان... فإنه لما زِيدَ التمييز المنطقي، أرادَ أن يقتني أشياءَ كثيرة لا حاجة له إليها في إقامة ذاته وصلاح عيشه، من تلوين الأطعمة، والمناظر من الحيوانات وغير الحيوانات، والتفتيش لمشاهداته وتزويقها، وكذلك مسموعاته ومشموماته، الشاغلات له عن منافله الحقية، الخارجة له عن راحته الدنيائية؛ فإن هذه جميعاً كاسباتُ الهمّ في طلبها، والألم لفقدها، والحسرات على فوتها؛ فإن مع كل مفقودٍ من المرادات مصيبة، ومع كل فائتٍ حسرةٌ وأسف، ومع ترقُّب كل معدومٍ حزنٌ وقلق... ولذلك ما نقولُ: من شغلته نفسُه بتزييد الخارجات عنه؛ عدمَ حياتَه الدائمة، وتكدّرَ عليه عيشُه في حياته الزائلة، وكثرت أسقامه، ولم تتصرّم آلامه" ص٢٢-٢٣

(٩) الفقد ليس رديئاً لأنه طبيعي، لكن الحزن رديء لأنه من فعلك؛ فاكره ما هو رديء

"وينبغي أن يكون منا على بال: أنه لا ينبغي أن نكره الذي ليس برديء، وإنما ينبغي أن نكره الرديء، فإن ثبتَ هذا في ذكرِنا؛ عظمَ غناؤنا به في دفع المحزنات الحسية.

فإنه لا يُظن أن شيئاً أردأُ من الموت، والموتُ ليس بردئ، إنما خوفُ الموت ردئ، فأما الموت فإنما هو من تمام طباعنا؛ فإن لم يكن موتٌ لم يكن إنسانٌ بتةً؛ لأن حدَ الإنسان هو: الحيّ الناطق المائت، والحد مبنيّ على الطبع؛ أعني أن طبع الإنسان أنه حيّ ناطق مائت؛ فإن لم يكن موتٌ لم يكن إنسان؛ لأنه إن لم يكن ميتاً؛ فليس بإنسان. فإذن ليس برديء أن نكون ما نحن، إنما الرديء أن لا نكون ما نحن...

فإن كان الذي هو مظنونٌ عند الكل أردأ الأشياء، ليس بردئ، فما هو دونه من المعدومات المفقودات الحسية ليس برديء...

فقد تبين إذن كيف غلطت الأنفس – الضعيفة التمييز المائلة إلى الحس – في الموت، وظنّته مكروهاً، وهو ليس بمكروه؛ فإذن عدمُ جميع الأشياء - التي دون الحياة الدنيائية من القنيات الحسية – ليس بردئ، بل الحزنُ عليها رديء؛ لأنها آلامٌ نُدخلها على أنفسنا، ليست باضطرارية ... فإن من رضي بذلك؛ رديء الاختيار عادمٌ عقله؛ لأن العقل يضع الأشياء مواضعها، فأما عدمُ العقل فيضع الأشياء غير مواضعها، ويظنها بخلاف ما هي" ص٢٨-٣٠

(١٠) عدِّد ما أنت فيه من النعم؛ تسلو عن المصائب

"وينبغي أن يكون منا على بالٍ عند كل فائتةٍ ومعدومٍ: ما بقي لنا من قنياتنا الحسية والعقلية، وأن نتشاغل بذكرها وتعديدها عن السالفة؛ فإن في تذكّر الباقي سلوةً من المصائب" ص٣٠

(١١) كل شيء تفقده؛ يقلل فرص فقدك المستقبلية؛ فكل مصيبة نعمة؛ لأنها تقلل مصائبك التالية

"وأيضاً قد يكون منا على بالٍ عند كل محزنةٍ من فائتٍ أو تالفٍ من الحسية: أن الذي بقي علينا من ترقُّب المصائب – بفقد قنياتنا الحسية - وأنه قد سقطَ عنّا؛ يُقلّ بعض المحزنات؛ فإن ذلك إن ثبت في ذكرنا؛ نقلَ المحزنات عن طبع المصائب إلى طبع النِّعم، وصار كل ما شملتنا مصيبة عندنا نعمة؛ لأنه إن كانت المصائب تقلل مصائبنا؛ فهي نعم؛ لأن المصيبة إن كانت محزنة في ظننا؛ فإن كل ما قلل المحزن نعمة؛ فكل ما قلل القنية الحسية – التي كلما عدمنا منها شيئاً؛ اكتسبنا عن أنفسنا مُصيبة – نعمة" ص٣٠-٣١